٤ـ المَنْهَجُ التَّارِيخِىُّ... ؛آفَاتُـهُ وَأَدْوَاؤه

نَستطيع أن نقول:

تتمثَّلُ جوانبُ القُصُورِ والضَّعْفِ فى المنهجِ التَّاريخىِّ ؛ فى عددٍ من الأُمُور ؛ من تأمَّلها ؛ عَلِمَ أَنَّهُ من العبثِ أَن يُعَوِّلَ النَّاقد على هذا المنهجِ وأن يركنَ إليهِ دائماً وأبَداً... ؛ وَهَا هِىَ أَسْبَابُ ضَعْفِهِ وَعَوَامِلُ وَهَاءِهِ:

١ـ تهميشُ الذَّوقِ الأدبىِّ... ؛ بل الإعراض عنهُ جُملةً وتفصيلاً ... ؛ فالنَّاقد الذى يحتكم إلى المنهجِ التَّاريخىِّ لا يعنيه من النَّص موضع الدِّراسة سوى الوقُوف على العوامل المُؤثِّرة .

٢ ـ وُقُوفُ المنهجِ التَّاريخىِّ عاجزاً كسيحاً ؛ أمامَ القضايا والموضوعات التى تفتقر لتلكَ المسائل والأُمُور التى تُمهِّدِ للمنهجِ التَّاريخىِّ أن يقُومَ بدورهِ الذى يُنَاطُ بهِ.

٣ـ قيام المنهج التَّاريخىِّ فى كثيرٍ من الأحايين باستخدامِ أُسلُوبِ القهرِ والاعتساف ؛ فهُو يُخضِع النُّصُوص والقضايا لأُصُولهِ وقوانينهِ حتَّى ينتهى إلى النتائج التى يُريدُها.

٤ـ تجاهُل ظاهرة « العَبْقَرِيَّة » ؛ والَّتى لا تعترف بالبيئةِ أو الجنس أو طبيعة العصر.

٣٠ـ تَذْييل

.....

٣١ـ النَّظَرِيَّةُ العِـرْقِيَّةُ فِى الأَدَبِ وَالنَّـقْد

ـ توطئة :

تُعَدُّ النَّظرية العِرقيَّة ـ (Critical Race Theory) ـ من أهمِّ المفاهيم والتوجُّهات الأدبيَّة والنَّقديَّة التى تُعنَى بها نظريَّةُ الأدب تنظيراً وتطبيقاً فى فترة ما بعد الحداثة ؛ وعلى الرَّغم من وجُود نظريَّاتٍ عِرقيَّةٍ فى كتاباتٍ استشراقيَّةٍ غربيَّةٍ سابقة ؛ كما عند المُستشرق الألمانىِّ رينان ؛ الذى مجَّد العِرقَ الآرىَّ كثيراً ؛ وذلك على حساب العِرق السامىِّ المُنحط ؛ كما أن الخطاب الاستشراقىَّ بصفةٍ عامَّةٍ ـ كما ترى نظرية ما بعد الاستعمار ـ قد سخَّر كُلَّ أدواته المعرفيَّة وآلياته الجَهنَّمية لتهميش الأعراق الأُخرى وازدرائها إقصاءً وَنَبْذاً وتغريباً ؛ لأن هذه الأعراق الدُّونيَّة مُرتبطةٌ بـ : التخلُّف ؛ والبدائيَّة ؛ والكسل ؛ والخمول ؛ والشَّهوانيَّة ؛ والعُنف.

وقد واجهت نظرية ما بعد الاستعمار ـ لاسيَّما مع إدوارد سعيد ـ هذه التُّرَّهاتِ العُنصريةَ البغيضة ؛ وانتقدت هذه الخُزعبلات الفكريَّة : بالتفكيك والتقويض والتشتيت تارةً ؛ وباستخدام النقد العلمىِّ الموضوعىِّ تارةً أُخرى.

ومن ثَمَّ ؛ فالنظريَّةُ العرقيَّةُ تخصُّصٌ علمىٌّ أكاديمىٌّ معروفٌ فى جامعات

الغرب؛ وخاصة فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكيَّة؛ تدرس مفهومَ العرق فى علاقته الوثيقة بمفهومى: القانون؛ والسُّلطة؛ ومن ثَمَّ؛ فالنظريَّةُ العرقيَّةُ توجُّهٌ أيديولوجىٌّ ينصبُّ على دراسة الأعراق الإنسانيَّة ضمن منظورات إثنيَّة وثقافيَّة ونقديَّة خاصة؛ وتُوحى النظريَّة العرقيَّة فى صميمها بمركزيَّة الرَّجُل الأبيض؛ وتميُّزِه: طبَقيًّا؛ واجتماعيًّا؛ وثقافيًّا؛ وتفوُّقِهِ على باقى الأعراق الأُخرى؛ وعلاوة على ذلك: يُمكن الحديث عن نظريَّةٍ عِرقيَّةٍ قديمةٍ؛ ونظريَّةٍ عرقيَّةٍ ما بعد حداثيَّةٍ مُرتبطةٍ بـ: الأعراف؛ والاختلاف؛ والتنوُّع؛ والتعدُّد؛ والانفتاح على الآخر.

.....

١ـ مَفْهُومُ النَّظَرِيَّةِ العِرْقِيَّة

يُقْصَدُ بالنظريَّة العِرقيَّة فى الأدب والنقد: التركيزُ على دراسة الأعراق الوراثيَّة والجينيَّة؛ بمعنى أن هذه النَّظريَّة تُدافع عن الأقليَّات المُهمشة عِرقيًّا ولونيًّا فى عالمنا هذا؛ كالحركة الزِّنجيَّة التى تُنَافِحُ عن الإنسان الأسود ضِدَّ هيمنة الرَّجُل الأبيض وغطرسته؛ ومن ثَمَّ؛ فالنَّظريَّةُ العِرقيَّةُ هى التى تقوم على أساسٍ عِرقىٍّ فى إطارٍ وراثىٍّ وثقافىٍّ وإثنىٍّ؛ وبتعبيرٍ آخر: فالنَّظريَّةُ العِرقيَّةُ هىَ ضد: التَّغريب؛ والإقصاء؛ والنَّبْذ؛ والكراهية؛ والعُدوان؛ والتمييز اللونىُّ والعِرقىُّ.

ومن هُنا؛ تهتمُّ النَّظريَّةُ العِرقيَّةُ فى الأدب والنقد بالظواهر العرقيَّة والإثنيَّة؛

وتُعنى كذلك بالتمايزات اللونيَّة التى تحبل بها النصوص والخطابات الإبداعيَّة والثقافيَّة على حدٍّ سواء؛ بُغيةَ مُدارستها وتحليلها ومُناقشتها فى ضوء المُقاربات المُتعدِّدة الاختصاصات؛ والتى تمزج بين مجموعة من المناهج المعرفيَّة المعروفة لفهم: البنية؛ والدِّلالة؛ والوظيفة.

وقد ارتبطت النَّظريَّةُ العِرقيَّةُ تاريخيًّا بخطاب ما بعد الاستعمار؛ لأنه يكشف التفاوت: اللونىَّ؛ والعرقىَّ؛ والحضارىَّ؛ والإثنىَّ؛ والثقافىَّ بين عالَم الغرب والعالَم الثالث.

ومن هُنا؛ فالنَّظريَّةُ العِرقيَّةُ هى التى تنكبُّ على النصوص والخطابات ذات التوجُّه العرقىِّ والتمايز اللونىِّ والإثنىِّ؛ وذلك بمشرح التفكيك والتقويض والتشتيت؛ بُغية فضح الإيديولوجيا الليبراليَّة الغربيَّة القائمة على الميثولوجيا البيضاء الواهمة.

.....

٢ـ سِيَاقُ النَّظَرِيَّةِ العِرْقِيَّة

ظهرت النَّظريَّةُ العِرقيَّةُ فى مجال الأدب والنقد فى فترة ما بعد الحداثة؛ ما بين سنوات الستِّين والتسعين من القرن العشرين؛ وقد ارتبطت هذه النَّظريَّة بـ: نظرية ما بعد الاستعمار؛ ونظريَّة الجُنوسة؛ والنظريَّة الجنسيَّة؛ والنظريَّة النقديَّة النّسويَّة؛ والنظرية الثقافيَّة؛ والنظريَّة التاريخيَّة الجديدة؛ وتهدف هذه النظريَّة العِرقيَّة إلى الدِّفاع عن الكتابة السَّوداء التى استهدفت تقويض

الميثولوجيا البيضاء؛ وقد ظهرت النَّظريَّةُ العِرقيَّةُ مع كُتَّاب الحركة الزِّنجيَّة (La négritude) التى استعملت الفرنسيَّة والإنجليزيَّة والعربيَّة للتعبير عن مقاصدها وأهدافها؛ وتأسَّست كذلك فى الحقل الثقافيِّ الأمريكىِّ ضمن ما يُسَمَّى بـ: الأدب الأسود.

ومن هُنا؛ فالحركة الزِّنجيَّة الإفريقيَّة قد حاربت المُستعمر من أجل: نيل الاستقلال؛ والتنديد بالاستغلال البَشِع الذى كانت تقوم به الدُّول الغربيَّة الاستعماريَّة فى حقِّ شُعُوب المُستعمرات؛ كما تغنَّت هذه الحركة بـ: الحُريَّة؛ والتحرُّر؛ والانعتاق؛ والهُويَّة؛ وفى المُقابلِ رفضت: العُبُوديَّة؛ والاستغلال؛ وهيمنة الرَّجُل الأبيض.

ومن أهمِّ رُوَّاد الحركة الزِّنجيَّة؛ نذكُر: الشَّاعر السنغالى ليوبولد سيدار سينغور (Senghor Léopold Sédar)؛ وإيمى سيزير (Aimé Césaire) فى كتابه: « خطابٌ حول الكولونياليَّة » (١٩٥٠م)؛ وكوام نيكروما (Nkrumah Kwame) فى كتابه: « نظرية الوعى » (١٩٧٠م)؛ والمُبدعين السُّودانيين: الشَّاعر مُحَمَّد الفيتور؛ الذى خصَّ إفريقيا بمجموعةٍ من الدَّواوين الشِّعريَّة الوطنيَّة والقوميَّة؛ كما فى ديوان: « أغانى إفريقيا »[١]؛ والرِّوائىّ الطيِّب صالح؛ كما فى روايته: « موسم الهجرة إلى الشَّمال »؛ وهُناك كُتَّاب زِنجيُّون آخرون دافعوا عن العِرق الأسود؛ مثل: ليون غونتران داماس(Léon Gontran Damas)؛ ورونى ماران

(René Maran)؛ وجان بريس مارس (Mars Jean Price).

.....

٣ـ مُرْتَكَزَاتُ النَّظَرِيَّةِ العِرْقِيَّة

تنبنى النَّظريَّةُ العِرقيَّةُ فى الأدب والنقد على منهجيَّةٍ ثقافيَّةٍ وإثنولوجيَّةٍ تعمل على إبراز ما هو خُصوصىٌّ وإثنىٌّ لدى جماعةٍ أو أقليَّةٍ اجتماعيَّةٍ ما؛ وذلك بالتركيز على العِرق واللون؛ ومن ثَمَّ؛ فإنَّ أحد أهم: « أهداف النَّظريَّة العِرقيَّة الواعية عِرقيًّا: هُوَ تحليلُ مفاهيم الهُويَّات العُنصريَّة والعِرقيَّة الثَّابتة؛ حتى عندما يكون هُناك على ما يبدو فوارقُ ملحوظة؛ وبالرَّغم من أنه يتمُّ تحليل هذه المفاهيم؛ فإنَّ التمييز بين العِرْق والإثنيَّة مع ذلك يتم الاحتفاظ به؛ وقد يتعلَّق العِرق بالخصائص الموروثة جينيًّا؛ وتهتم العِرْقيَّة كذلك بالهُويَّة الثقافيَّة المُشتركة؛ وبفهم العلاقات بين هذه المفاهيم وغيرها من المفاهيم المُستخدمة والشَّائعة فى النظريَّة الثقافيَّة؛ وبخاصَّةٍ فى نظريَّة ما بعد الاستعمار.

وكان الجُزء الرَّئيس من العمل حتى الآن ينخرط فى مجال ثقافة السُّود؛ حيث بدأ الكُتَّابُ السُّود النَّاطقون بالفرنسيَّة باستخدام مفهوم الانتماء الزِّنجىِّ (negroness)؛ ويُمكن تعريف المُصطلح بشكلٍ عامٍّ؛ بأنه: المواقفُ تجاه العالم والطبيعة؛ وأنماط التفكير المُشتركة بين الأعراق السَّوداء؛ وثمة مجموعات عرقيَّة وإثنيَّة أُخرى تقوم بدراسات مُستفيضة ومُكرَّسة لتلك المواقف ». [٢].

وعليه ؛ تنبنى المنهجيَّةُ العِرقيَّةُ فى مجال الأدب والنقد : بالتركيز على الأعمال والمفاهيم العِرقيَّة المُتميِّزة فنيًّا وجماليًّا ؛ ورصد الظواهر العِرقيَّة عبر آليات التَّشريح البِنيويِّ أو السِّيميائيِّ أو الأُسلُوبيِّ أو الجماليِّ أو الموضوعاتيِّ ؛ ثُمَّ الانتقال إلى تأويل الظواهر العِرقيَّة التى تُوجد فى النُّصوص والخطابات تأويلاً : ثقافيًّا ؛ وتاريخيًّا ؛ وسياسيًّا ؛ واجتماعيًّا ؛ وإثنيًّا ؛ ونفسانيًّا ؛ وفلسفيًّا ؛ وتفكيكيًّا ؛ وهرمونيطيقيًّا ؛ وكُلُّ ذلك من أجلِ فهم العقليَّة العِرقيَّة وتفسيرِها وتشريحها ؛ سواءٌ أكانت تلك العقليَّة العِرقيَّة مُعارضةً أم عقليَّة بيضاء تنصِبُ العداء للأعراق المُخالفة ؛ كما تُوضِّح ذلك نظريَّةُ ما بعد الاستعمار بشكلٍ جلىٍّ .

.....

٤ ـ رُوَّادُ النَّظَرِيَّةِ العِرْقِيَّة

هُناك مجموعة من رُوَّاد النظريَّة العِرقيَّة واللونيَّة فى مجال الأدب والنقد بصفةٍ خاصَّةٍ ؛ ومجال الثقافة بصفةٍ عامَّةٍ ؛ ومن بين هؤلاء : هنرى لويس غيتس جونيور ؛ الذى رفض ـ لاسيَّما فى مقالته : « العرق ؛ والكتابة ؛ والاختلاف » (١٩٨٥م) ومقالات أُخرى ـ أن يدرس العِرْق الأسود من منظورٍ نقدىٍّ أبيض ؛ نظراً لغياب العِلميَّة والموضوعيَّة فى ذلك ؛ فلابُدَّ من مُقاربة الظَّواهر العِرقيَّة السَّوداء فى إطار الثقافة الزِّنجيَّة فحسب.

وفى هذا الصدد يقول دافيد كارتر (David karter) :

« أعرب هنرى لويس غيتس جونيور عن اعتقاده أنه من غير الكافى تطبيقُ الفئات النَّقديَّة المُتقدِّمة فيما يتعلَّق بأدب الغرب الأبيض على أدب مجُتمعات السُّود ... ؛ علينا أن نلتفت إلى تقليد السُّود نفسه لتطوير نظريَّات النَّقد المُتأصِّلة فى ثقافتنا. » .

وَيحُاول غيتس أن يُبرهن أيضاً على ضرورة انهيار المُعارضات الثُّنائيَّة ؛ مثل : « أسود » و « أبيض » : « نحن جميعاً أعراق » ؛ و« علينا جميعاً أن نتجاوز ظُرُوف تصوُّراتنا المحدَّدة عِرقيَّاً. ». [٣].

أمَّا الناقد والدارس ستيوارت هول ؛ فيقول بفكرة التهجين (Hybridation) ؛ ويعنى عدم وجُود عِرْقٍ صافٍ ونقىٍّ داخل منظومةٍ ثقافيَّة ما ؛ فلقد اختلطت الأجناس والأعراق على حدٍّ سواء ؛ فتشكَّلت ثقافةٌ هجينةٌ ومُختلطةٌ ومُتداخلةٌ مُشتركةٌ ؛ من الصعب الفصل بينها بأىِّ حالٍ من الأحوال ؛ وبالتالى : لا يُمكن أن نحتكم إلى الاصطفاء النَّوعىِّ أو الانتقاء العِرقىِّ واللونىِّ.

ومن هُنا ؛ فلقد استخدم ستيوارت هول مُصطلح التهجين الذى استعاره من نظريَّة ما بعد الاستعمار : « لوصْفِ تجربة الأعراق الإفريقيَّة ؛ التى انتشرت فى الثقافات الأُخرى ؛ ومناطق الأقليَّات العِرقيَّة (الشَّتَات) ؛ وبالنسبة لهول : لم يحتفظ شعب هذا الشتات بأىِّ نقاءٍ عِرْقِىٍّ ؛ ولكنَّهُ أصبح بالضرورة مُتنوِّعاً أو هجيناً ؛ كما وضع هول فكرة وجود الشَّتَاتِ الجماليِّ لتحليل أدب وفنِّ هذا الوجُود الهجينىِّ. ». [٤] .

وإذا انتقلنا إلى بول غيلروى صاحب كتاب: « المُحيط الأطلسيُّ الأسود: الحداثة؛ والوعى الثُّنائيُّ » ـ(١٩٩٣م) ـ؛ فيقول بمفهوم الوعى المزدوج أو الوعى الثنائيّ؛ بمعنى أنَّ الكاتب أو المُبْدِع أو المُثقَّف الأسود يُفكِّر بعقليتين مُختلفتين فى الوقت نفسه؛ من جهةٍ: يُدافع عن أصالتِه وهُويَّته الزِّنجيَّة السَّوداء؛ ومن جهة أُخرى: ينجذب إلى الحداثة الغربيَّة البيضاء؛ لذا: على هؤلاء المُثقَّفين السُّود أن يعُوا هذا الانفصام الثَّقافيّ؛ وأن يُعالجوا هذه الازدواجيَّة الفكريَّة والانفصال الوجدانيَّ: فى إطار النَّقْدِ الذَّاتِيِّ.

وعليه: « يُشدِّد بول غيلروى على الوعى المزدوج فى تجربة السُّود: ينقسم وعى السُّود بين وعى ثقافتهم الأصليَّة؛ والثقافة الأمريكيَّة أو البريطانيَّة المُعاصرة (فى الحالات المدرُوسة)؛ ويجب على نُقَّادِ الأدب المكتوب من قِبَلِ الكُتَّابِ السُّود أن ينظروا فى هذا الوعى المزدوِج فى تقييماتهم». [٥].

ولم تقتصر النَّظريَّة العِرقيَّة واللونيَّة على الرِّجال السُّود فقط؛ بل هُناك ناقداتٌ وكاتباتٌ زنجيَّاتٌ كرَّسْنَ مجموعةً من الدِّراسات والأبحاث للدِّفاع عن العِرْقِ الأسود؛ وَمُحاربة الميثولوجيا البيضاء؛ التى تُعبِّر فى الحقيقة عن فكر: الهيمنة؛ والاستغلال؛ والتفوُّق المُبالغ فيه.

ويندرج هذا النَّوع من الكتابة كذلك ضمن النَّظريَّة النِّسويَّة السَّوداء؛ حيث: « وسَّعَت كاتبات مثل باربرا سميث وبيل هوكس: أساس الدراسات العِرقيَّة؛ من خلال زيادة الوعى لحالة الكاتبات النِّساء السُّود بشكلٍ عام؛ وقد كتبت جون جوردان وبولا غن آلن وأُخريات على نطاقٍ واسعٍ عن

التجربة الأدبيَّة للكاتبات الهنديَّات الأمريكيَّات؛ وكذلك الأمريكيَّات الأسوديَّات بشكلٍ عام. »[٦].

وهكذا؛ فقد شَمَّرَ رُوَّادُ النَّظريَّةِ العِرقيَّة فى الأدب والنقد عن سواعدِهم للدِّفاع عن الأعراق المُهمشة؛ والمُنافحة عن الإثنيَّات المقصيَّة؛ فى ضوء مُقاربات نقديَّة وثقافيَّة مُتنوِّعة؛ مع التنديد بالتمييز العُنصرىِّ والعِرقىِّ واللونىِّ الذى لا يخدم البشريَّة إطلاقاً؛ بل على العكس: يدفعها إلى الصِّرَاع والعُدوان والتناحُر.

.....

ـ خُلاصَةٌ تَرْكِيبِيَّةٌ

وَخُلاصة القول: يبدو أنَّ النَّظريَّة العِرقيَّة فى مجال الأدب والنقد مُهمَّةٌ جِدًّا؛ لأنها تُسعفنا فى فهم الخطابات والنُّصوص ذات التوجُّه العِرقىِّ؛ والتى تتضمَّن فى طيَّاتها التمايزات اللونيَّة والعِرقيَّة والإثنيَّة؛ قَصْدَ تبيان جدليَّة العِرق المُتفوِّق والعِرق المُتخلِّف؛ وأيضاً لمعرفة التقابلات الموجودة بين الأعراق البشريَّة اختلافاً وتمايُزاً وأدْلَجَةً عبر مجموعةٍ من الصُّوَرِ المقارنة؛ مع تفكيك أيديولوجيَّات التسلسُل العرقىِّ؛ وفضح تصوُّرات الإنسان الغربىِّ؛ الذى يدَّعى: التفوُّق؛ واحتكارَه للعلم؛ والمعرفة؛ والتقنية؛ والسُّلطة؛ وامتلاك وسائل الإنتاج ورأس المال.

إذاً؛ فمن المُفيد تقويضُ الخطابات العِرقيَّة والعُنصريَّة والاستعماريَّة من أجل

إعادة بناء علاقات ثقافيَّة على أُسُسٍ جديدةٍ؛ تقوم على: الاعتراف بالغير؛ والإيمان بالتَّعدُّديَّة والتَّهجين؛ والعمل على بناء سياسةٍ إستراتيجيَّةٍ قائمةٍ على أُسُسِ التفاهم والتعايُش والتسامح بين الأعراق البشريَّة؛ فليس هُناك ـ علميًّا ودينيًّا ـ عرقٌ أفضل من عرقٍ آخر؛ فهذه مجُرَّد تمايزات وراثيَّة ليس إلاَّ؛ وبالتَّالى؛ لا علاقة لها بالتَّمايُزات المعرفيَّة والثقافيَّة والفكريَّة والإبداعيَّة والحضاريَّة؛ فَكُلُّ عرقٍ ـ مهما كان ـ قادرٌ على العطاء والإبداع والإنتاج والتميُّز: بشرط أن يتمتَّع بنفس الظُّروف الماديَّة والمعنويَّة التى يستفيد منها العرق الآخر المُقابل.

[١]ـ محمد الفيتورى: ديوان محمد الفيتورى؛ المجلد الأول؛ دار العودة؛ بيروت؛ لبنان؛ الطبعة الأولى: سنة ١٩٧٢م.

[٢]ـ ديفيد كارتر: النَّظريَّةُ الأدبيَّة؛ ترجمة: د. باسل المسالمه؛ دار التكوين؛ دمشق؛ سوريا؛ الطبعة الأولى: سنة ٢٠١٠م؛ ص: ١٤٣.

[٣]ـ ديفيد كارتر: نفسه: ص: ١٤٣ـ١٤٤.

[٤]ـ ديفيد كارتر: نفسه: ص: ١٤٤.

[٥]ـ ديفيد كارتر: نفسه: ص: ١٤٤.

[٦]ـ ديفيد كارتر: نفسه: ص: ١٤٥.